صدر قديماً

سابا جورج شبر إضاءات جديدة على المفكّر الحضرمي

ابن خلدون في متاهة المدينة العربية

قلة من الناس تعرّفت على افكار ابن خلدون المتعلقة بتخطيط المدينة ومعمارها وهندستها. في كتابه «النمو الحاضر للمدينة العربية» يضيء المعماري الفلسطيني سابا جورج شبر وجوهاً جديدة لـ«مقدّمة» ابن خلدون، وسنتساءل كيف طُرحت هذه الأفكار قبل عصور الحداثة؟

محمد الأسعد

حقيقة لم أفكّر بالحضرمي ابن خلدون، صاحب «المقدمة» الشهيرة، كمهندس معماري وعالم اجتماع إنساني ومخطط مدن سبق عصره وما سيليه من عصور تعتبر الآن عصور علم وصنّاعة إلا حين وقع نظري على دراسة للمهندس سابا جورج شبر (1923- 1968) ضمّها كتابٌ صدر تحت عنوان «النمو الحاضر للمدينة العربية» (مطبعة الكويت الحكومية، 1968). في هذه الدراسة اللماحة، وهي مكتوبة بالإنكليزية، نكتشف وجهاً آخر من وجوه هذا العبقري ابن خلدون.

نحن نعرفه مؤرخاً وعالم اجتماع وصاحب نظرية في نشوء الحضارات وأسباب انحطاطها، ولكننا لم نعرفه كمبتدع لعلم تخطيط المدن وهندستها، وصاحب نظرات نافذة لم يدركها إلا قلّة من المعاصرين في زمننا الراهن.

اليوم، كما قال شبر في دراسته هذه، يعتمد تخطيط المدن والمناطق الحضرية اعتماداً كبيراً على فروع علمية عديدة، اقتصاد واجتماع وجغرافيا وقانون وتمويل وهندسة وإحصاء وإدارة ومعمار.. إلخ. وحتى اليوم ما زالت القلة تمتلك فهماً واسعاً لما يعنيه بالنسبة للوعي تخطيط المدن، فهو تخطيط شامل يتطلّب معطيات واسعة وتحليلات إحصائية وتقانات ومسوحات ومهارات في صناعة الخرائط.

ومن المؤسف، بقدر ما يعني الأمر الوطن العربي، أن تطبيق المبادئ السليمة في تخطيط المدن ظل مفقوداً طوال الستين أو السبعين سنة الماضية باستثناء حالات قليلة ومعزولة. المدن العربية - والحديث يجري في ستينيات القرن الماضي - نمت بسرعة وتحوّلت إلى تجمعات مدنية غير عملية، وغالباً تتناقض مع مفاهيم التمدن الراسخة والشهيرة. ولكن المدن العربية ليست الوحيدة في تمثيل هذا النوع المأساوي من البناء، فحتى في البلدان الغربية لم تبدأ ممارسة مبادئ تخطيط المدن السليمة إلا منذ وقت قريب جداً.

في ضوء هذا، أي في ضوء تجاهل الإنسان وحاجاته بعامة في التخطيط للمدينة، وبخاصة تجاهل الحرب الماثل في بعض مدنهم خلال العقود الماضية، تظهر أفكار وتحليلات العربي عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون الحضرمي (1332-1405)، ليس بكونها بالغة الأهمية وجوهرية فقط، بل بكون أهميتها بالإضافة إلى ذلك ذات معنى كبير بحيث يمكن اعتبارها إحساساً شاملاً بتخطيط المدينة بكل جوانبها بمعناها المعاصر.

لا شك أنه يمكن اعتبار فكر ابن خلدون فكراً ينتمي إلى فئة الفكر العبقري الذي يتخطى زمنه ويصلح لكل الأزمان. إنه يمتلك فهماً استثنائياً للعناصر الفاعلة في عصره، ولا نجد في العصور القديمة ربما سوى فيلسوفين مثل أرسطو وأفلاطون عالجا بشكل أو باخر جوانب بناء المدن. بينما اهتم الآخرون بنواحي المدن العسكرية أو لأغراض استراتيجية. وحده ابن خلدون أدرك العناصر المتنوعة التي هي شرط بناء المدينة، وعبّر عنها بحذق ومهارة ووضوح وقوة. كانت المدينة بالنسبة له الناس والمباني والحكم والهندسة والثقافة والمعمار والإدارة والاقتصاد. ولم تكن كياناً عضوياً جامداً، كما يقول شبر، ذا بعد أو بعدين، بل كانت كياناً عضوياً متعدد الأبعاد مضافة إليه عناصر الزمن والفلسفة.

ابن خلدون المعروف حتى اليوم بقدراته الفكرية الشاملة خارج الوطن العربي أكثر مما هو معروف لدى العرب، اعتمد على ثروة معرفية هائلة وأبحاث واسعة، وعلى ملحوظات حساسة مباشرة استمدها من رحلاته من أقصى الوطن العربي إلى أدناه.

والحقيقة أن قلة من الناس تعرّفت على أفكار ابن خلدون المتعلقة بتخطيط المدينة ومعمارها وهندستها، لأن هذا الحقل أصبح حقلاً معقداً يمتزج فيه العلم بالفن، إضافة إلى كونه علم اجتماع إنساني كما ينظر إليه في الأزمنة الحديثة. وأفكار مثل أفكار ابن خلدون حول هذه الموضوعات ذات نغمة استثنائية، ومعاصرة بشكل بالغ الوضوح تدفع المرء إلى التساؤل: لمَ لم يلفت انتباه المخططين ذوي الاتجاه العلمي الاجتماعي، ولماذا لم يلتفت المؤرخون إلى أفكاره التي تمتلك نغمة أكثر الأفكار المعاصرة نفوذاً مثلما التفتوا إلى أفكاره عن الخيمياء والفلك؟

بعد أكثر من ستة قرون مرت على كتابته لمقدمته الفذة، لا يزال من الممكن حسبان الكثير من محتويات مقدمته بسهولة بالغة من منتجات عصرنا أيضاً.

يقول ابن خلدون على سبيل المثال: «إن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة كما قدمنا، وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضاً فالمدن والأمصار ذات الهياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير، وهي موضوعة للعموم لا الخصوص، فهي تحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون». وحين ينظر المرء إلى ما حدث خلال الخمس عشرة سنة الماضية من نمو للمراكز المدنية العربية، يدرك كم تحمل كلمات ابن خلدون من معنى ورؤيا ثاقبة. وهناك ملحوظة مهمة ودالة يوردها ابن خلدون: «اعلم أن المدن قرارٌ تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. ولما كان ذلك القرار والأولى، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها».

وحين يدرك المرء أن هذه الملحوظة تتضمّن، ربما لأول مرة في الأدب المدني، المفهوم المعاصر للتقسيم المناطقي، تصيبه الدهشة وهو يرى الكثير من المدن العربية التي بنيت خلال العقد الماضي أو نحو ذلك، تناقض هذا المفهوم القائل «بأبعاد الأشياء الضارة عن المدن». لم يظهر التقسيم المناطقي في أوروبا إلا خلال الثمانين عاماً الماضية، أما لدينا، فبعد 600 عام لا تزال المعرفة المدنية الضرورية في كيفية التخطيط مفقودة، والرأي العام بلا قوة في هذه المسائل، ولا قدرة منظمة على إبعاد المضار عن المناطق السكنية إلا في ما ندر من مدن.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

سابا شبر (في الوسط) مع معماريين عرب أثناء مشاركتهم في مؤتمر معماري عقد في فلسطين عام 1936

بفضل كتاب شبر نكتشف وجها جديدا من عبقرية ابن خلدون

ادرك ابن خلدون العناصر المتنوعة التي هي شرط بناء المدينة

ايكولوجيا قبل أوانها

يلتقط سابا شبر من ابن خلدون ملامح فكر ايكولوجي، إذا استعملنا عبارة حديثة. فهو يؤكّد ان صاحب المقدّمة قد انتبه الى ان حماية البيئة احد شروط العمران، بل اننا نقرا في نصوصه احيانا ما يشبه تقارير خبراء البيئة والصحة في ايامنا، كان يشير الى خطر الهواء الفاسد وعلاقة الجو باختيار امكنة اقامة المدن، كما يقترح ما هو مفيد لنهضة المدن مثل الحدائق وهو عين ما تطبّقه حاليا الهيئات البلدية.

قصة

لم يكفِ بيته بكل الجدران التي فيه

كشف حساب للديمقراطية الأميركية

ولم يعد دفتره يكفي لتلك الاسماء، فاستخدم الواحا خشبية وطباشير، ورسم عليها جداول باسماء المقتولين وخانات لعدد الآيات

حسن اكرم

يمكننا ادّعاء أنّ ما حدث مع مسعد هو نتاج لوسواسه القهري الذي قد تلبّسه منذ ولادته، وكما يفسّر بعض الناس ما هو إلا جرعة مضاعفة من وسواس والده، وأنّه ورثه من تراكم جيني عائلي. مسعد يفكر كثيراً في أيّ شيء، حتى الأشياء السخيفة التي لا تستحق التفكير، بل على العكس كان يُكثر التأمل فيها، والتخوّف من عواقب لا يمكن أن يتخيّلها احد غيره.

وإضافة إلى ذلك، كان يحدّد تمائم معينة على أنّها مفاتيح لحل كلّ شيء، فهو لا يدخل امتحاناً دون أن يقرأ سورة الكهف كاملةً، والتي تأخذ منه على الأقل نصف ساعة في القراءة السريعة، لذا تجده يقف عند قاعة الامتحان يقرأ من المصحف وهو يشهق خوفاً من أن يسرقه الوقت ويدخل للامتحان دون أن يكملها، ويكرّر الطقس نفسه قبل مباريات المنتخب الوطني وفي أيام الحروب والعواصف.

إضافة إلى ذلك نبت لمسعد طقس قهري جديد، فبعد وفاة ابن عمه «علي» صار يُلزم نفسه بقراءة سورة الإخلاص ثلاث مرّات قبل النوم ويهديها لروحه، اعتقاداً منه أنّ هذه المرّات الثلاث ستضيء قبر ابن عمه.

ومع موت صديقه بسبب حادث سير، قرر أن يلتزم بإضاءة قبره أيضاً. ومع الوقت صار يفقد الكثير من الناس تباعاً، حتى أنّ أغلبهم لم يكونوا أصدقاء مقرّبين منه، لكنه يفعل ذلك بمحبة كأنّه يتعرّف عليهم للتو، كلّ ذلك كان مسيطراً عليه وضمن الممكن، حتى جاء 6 شباط من العام 1991 حين قُتل والده مع زملائه الضباط في واحدة من خنادق الجيش العراقي في البصرة، فقد قصفت الطائرات الأميركية تلك الخنادق بقذائف «النابالم»، تلك القذائف المحرمة دولياً، التي سرعان ما رفعت درجة حرارة الخندق إلى 800 درجة سيلزية مع وميض حارق، وتسببت بإذابة أجسادهم على الفور.

ومع الليلة الأولى لموت والده، أخذ على نفسه عهداً بأن يثير قبره وصار يقرأ له سورة الإخلاص ثلاث مرّات قبل أن ينام، ولم يكن يستطع ان يتجاوز مصيبة أصدقاء أبيه فطلب أسماءهم أيضاً مع أسماء أُمهاتهم ليهدي لهم قراءة سورة الإخلاص، وينير تلك البقعة من المقبرة بشكل دائم.

واظب مسعد على ذلك، وليكون أكثر دقة في إهداء تلك الآيات دون أن ينسى أحداً، استخدم دفتراً مجدولاً فيه أسماء المقتولين، إضافة إلى حقل فارغ يدوّن فيه عدد المرّات التي قرأ فيها الإخلاص لكل منهم.

وبعد ثمانية أيام من مقتل والده، هاجمت طائرة من نوع شبح ملجأ العامرية بصاروخ موجه بالليزر محدثاً فتحة في السقف ليثقب في مستشفى الملجأ. وبعد دقائق وجّه صاروخ آخر عبر الفتحة نفسها، تسبّب بغلق بوابات الملجأ التي تزن حوالي ستة أطنان، وأحرقت الحرارة التي تناهز الألف درجة 400 شخص داخل الملجأ بين رجال ونساء وأطفال.

هزّت هذه الحادثة البلاد، شاهد مسعد كلّ ذلك عبر التلفاز، جثث محترقة تُنتشل من حوض الماء الساخن بفعل الإطفاء، كأنّه قدر عملاقة لسلق الجثث. لم ينم في ليلتها ولا الليلة التي تلتها، حتى حصل على قائمة كاملة بأسماء المقتولين، 400 اسم أضافها مسعد لقائمته الليلية، ولم يعد دفتره يكفي لتلك الأسماء، فاستخدم الواحاً خشبية وطباشير، ورسم عليها جداول بأسماء المقتولين وخانات لعدد الآيات.

كان يحتاج إلى ثلاث ساعات قبل النوم ليثير مساحة تقدّر بالف متر من المقبرة، هذا ما كان يجعله يُصاب بالإعياء أحياناً.

ومع تلاحق القذائف التي سقطت على البلاد والتي تقدر بثمانية وثمانين ألف طن من القنابل، صار مسعد يستخدم أوراق الجدران في جدولة أسماء المقتولين، ولم يكف بيته بكل الجدران التي فيه لاستيعاب أسماء القتلى.

وجد مسعد بعد ذلك منزوياً على نفسه متيبساً في بيته، وقد جفّ حلقه وجحظت عيناه وازرقّ جلده. مات مسعد بين أسماء المقتولين المجدولة كأنّها فواتير معدة بالأرقام لإرسالها إلى جهةٍ ما.

كأنّها فواتير معدة بالارقام لإرسالها إلى جهةٍ ما

(كاتب من العراق، والقصة من سلسلة قصصية بعنوان «لو أنني منعتُ الديمقراطية من أن تركب على ظهر الدبابة» تصدر العام المقبل، وهي للمجموعة الحائزة على منحة تفرّغ من مؤسسة «مفردات» في بلجيكا)

حسن شاكر ال سعيد، زيت ومواد مختلفة على لوح، 1984

متابعة

باريس ـ أثينا الم يحن الوقت لعودة فينوس إلى بلدها؟

ذاكرة الافتتان الفرنسي باليونان

يتضمّن إعلان اللوفر عن تنظيم معرض حول اليونان قريباً، نزعة استعراضية لمحتوياته الإغريقية. اليس اولى ان تعود الكثير من هذه التحف إلى بلدها؟

سفيان طارق

تحيي اليونان هذا العام المئوية الثانية لاستقلالها. وفي حين أنه يبدو مجرّد حدث سياسي قديم في بلاد الإغريق فإنه أقرب إلى حدث ثقافي في فرنسا، فحين نعود قرنين إلى الوراء سنعرف أن قضية استقلال اليونان لم تكن مسالة سياسية في بلد بعيد نسبياً، لقد كانت قضية ثقافية بالأساس: لا بدّ من استرجاع أوروبا بمنابعها الفكرية والفنية من الشرق الذي مثّلته وقتها الإمبراطورية العثمانية.

تزامن الترويج للقضية اليونانية، بمعناها السياسي، مع هوس بالآثار اليونانية، وباستعادة كل روح العصر الإغريقي القديم، من الفلسفة إلى الفنون النحتية. وقد سجّل عام 1821، إضافة إلى إعلان استقلال اليونان، وصول منحوتة «فينوس ميلو» إلى مجموعة متحف اللوفر في باريس.

بمناسبة هذه الذكرى المزدوجة، بدأ متحف اللوفر في الترويج لمعرض بعنوان «باريس - أثينا» حول اليونان في الثقافة الفرنسية ينطلق الشهر المقبل على أن يمتد إلى شباط / فبراير 2022، وهو معرض يأخذ محورين: الأول هو عرض المحتويات اليونانية للمتحف الباريسي مع ذكر حكايات وصولها إليه حيث إن تلك الحكايات تعيدنا إلى زمن كانت فيه البرجوازية الفرنسية تعبّر عن ثرائها باستجلاب أغلى القطع الأثرية التي يعثر عليها المنقّبون في اليونان. أما المحور الثاني، فهو الأعمال الفنية التي استدعت الأفق اليوناني، وكان معظمها في فن الرسم الزيتي حيث إن تحريك مشاعر التضامن مع الشعب اليوناني في نضاله من أجل الاستقلال مرّ من إعادة قراءة تاريخ هذا البلد عبر الفن، تماماً كما فعل عصر النهضة الإيطالي حين عاد إلى الميثولوجيا الرومانية أو القصص التأسيسية للدين المسيحي.

بحسب تقديم المعرض، نقف على الجهد البحثي الذي بات يؤثث معارض وتظاهرات كهذه، فلسنا حيال معرض ينطلق «كوميسير» يقف دوره على ترتيب المعروضات ضمن تصوّر ما للفضاء، وإنما نحن إزاء فريق بحثي يضمّ مؤرّخين وعلماء آثار وخبراء متاحف وباحثين في الفن، وهو ما يجعل من المعرض أقرب إلى مشروع تاريخي متكامل، صحيح أنه يعتمد على الآثار واللوحات، ولكنه يذهب إلى ما هو أبعد، وهو محاولة إعادة تركيب فضاء زمكاني متكامل.

يثير المعرض الكثير من القضايا، أبرزها هذه العلاقات العميقة التي تنشأ بين الشعوب على الرغم من البعد الجغرافي، كما أننا يمكن أن نتساءل عن موقف الحكومة اليونانية من هذا الاستعراض لآثار يونانية في متحف اللوفر، أليس من الأولى أن يعود هذا التمثال وغيره إلى وطنه الأم أسوة بمئات القطع الأثرية التي أخذت طريقها من متاحف المدن الأوروبية إلى مواطنها الأولى تحت ضغط عدد من الحكومات الأفريقية. أليس ذلك هو الشكل الحديث للتعبير عن تقدير اليونان في عصورها البعيدة التي أنارت الطريق لأوروبا الحديثة، كما يحبّ أن يؤكّد فنانو ومفكّرو النصف الأول من القرن التاسع عشر ضمن دعمهم قضية الشعب اليوناني.

نقف على الجهد البحثي الذي بات يؤثث معارض وتظاهرات كهذه

من جناح الآثار اليونانية في متحف اللوفر (Getty)

فعاليات

يستضيف **صالون اقرا لي الثقافي**، عند السادسة من مساء الأحد المقبل، الباحث الموسيقي المصري الفلسطيني **محمود العطار** للحديث عن كتابه **حلاج الأوتار**، ويناقشه مصطفى الطيّب. يتناول الكتابُ، الصادر حديثاً عن «دار معجم»، قصصاً وكواليس من عالم الموسيقى العربية في القرن العشرين.

عبر منصّة **زووم**، تُقام الأحد والاثنين المقبلَين أشغال **مؤتمر مؤسّسة الدراسات الفلسطينية** تحت عنوان **هبّة القدس: الدلالات والعبر المستخلصة**. تناقش جلسة اليوم الأول عناصر القوّة الدولية والتضامن الدولي، وسبل تفعيل الدور العربي الشعبي والرسمي، والتحولات في المشهد الدولي، وتتناول الثانية صمود المقدسيّين ودور الشباب، واستراتيجيات المقاومة والاحتلال.

ليلة فرح عنوان حفل يستضيفه **مترو المدينة** في بيروت، عند التاسعة من مساء غدٍ، وتُقدّم فيه المغنّية اللبنانية **فرح نخّول** (الصورة) وفرقتُها مختارات من الحان الموسيقار المصري بليغ حمدي. تضمّ الفرقة: شربل عبد الساتر (كيبورد)، وجورج ابي عاد (بيانو)، واسامة الخطيب (باص)، وبشّار فحلو (قانون) وآخرين.

تُقام في **مؤسّسة عبد الحميد شومان** بجبل عمّان، عند السابعة من مساء الخميس المقبل، الامسية الثالثة من سلسلة **صوت ولون** التي تجمع بين الموسيقى والفنون البصرية. تُخصّص الجلسة للموشّحات الاندلسية، بمشاركة المغنّية سارة البو والتشكيلي فاروق لمبز (اللوحة) الذي يهتمّ في لوحاته بالتراث العربي والإسلامي.